المناهج التعليمية في دمشق
خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي

الدكتورة وسيلة فراج
المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة

مقدمة: تعددت المراكز العلمية في الشام خاصة دمشق في القرن 6هـ/ 12م من جوامع ومنازل العلماء والأربطة والمدارس وكانت الجوامع في دمشق عامرة بحلقات العلم يحضرها أبناء دمشق والوافدون عليها ينهلون من العلوم المختلفة ويقرؤون الكتب المتنوعة في كل علم وكانت منازل العلماء والأربطة والمدارس أيضا تعج بالعلم والعلماء وقد تعددت المناهج التعليمية بها فما هي أهم المراكز العلمية التي نشطت في هذه الفترة في دمشق وما هي طرق التدريس بها؟

أولا: أهم المراكز العلمية بدمشق القرن 6هـ:

شهدت دمشق في القرن 6هـ/ 12م انتشارا كبيرا للعلم وللمراكز العلمية وذلك لاهتمام الأمراء والحكام بالعلم وببناء المراكز العلمية، من جوامع ومدارس ومنازل العلماء وأربطة وخوانق[1] مثل السلطان نور الدين محمود المتوفي سنة 569هـ/ 1173م والسلطان صلاح الدين الأيوبي المتوفى سنة 589هـ/ 1193م[2].

ومن أنشط الجوامع في دمشق الجامع الأموي والجامع المظفري ويسمى جامع الجبل وجامع الحنابلة أما الجامع الأموي كان عامرا بحلقات التدريس التي كان كبار الشيوخ يعقدونها أما الجامع المظفري فكان يزدحم برجال الحديث والقراء وأصحاب الفتوى وظلت حلقاته تتدبر تفسير آيات الذكر الحكيم وأخذ اتساع الحلقات يتضاعف وذكر الرحالة ابن جبير عندما زار دمشق سنة 580هـ/ 1174م أنه احتوى على حلقات لتدريس الطلبة وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي يجتمع فيه طلبة مغاربة قال سبط ابن الجوزي[3] قدمت دمشق وجلست بالجامع الأموي فكانت مجالس العلم منها مجلسي حضره القضاة والأشراف والأعيان وكان مجلسه يزدحم بالطلاب رجالا ونساء في الجامع الأموي وجامع الجبل أو المظفري وكان كل سبت حلقا للقرآن[4].

وأما المدارس التي نشطت في هذه الفترة المدرسة الخاتونية التي بنتها زمرد خاتون بنت جاولي توفيت سنة 557هـ/ 1162م وكانت للطائفة الحنبلية درس بها الفقيه جلال الدين أبو محمد عمر الخجندي المتوفي سنة 691 هـ/ 1292م[5].

والمدرسة الصلاحية التي أنشاها صلاح الدين الأيوبي المتوفي سنة 589هـ/ 1193م والمدرسة الحنبلية الشريفية أنشاها شرف الاسلام عبد الوهاب الشيرازي الحنبلي المتوفي سنة 536هـ/ 1141م درس فيها نجم الدين بن عبد الوهاب الدمشقي الحنبلي المتوفي سنة 586هـ/ 1190م[6].

ونشطت أيضا المدرسة العادلية الكبرى داخل دمشق بناها نور الدين محمود سنة 568هـ/ 1172م وأكملها الملك العادل سيف الدين بن شادي المتوفى سنة 615هـ/ 1218م وهي مدرسة للشافعية[7].

والمدرسة العذراوية أوقفتها للشافعية والحنفية سنة 580هـ/ 1184م الست عذراء بنت السلطان صلاح الدين توفيت سنة 593هـ/ 1196م[8].

والمدرسة العزيزية قرب الجامع الأموي بنيت سنة 592هـ/ 1195م أمر صلاح الدين ببنائها وأوقفها أبو الفتح عثمان بن صلاح الدين المتوفى سنة 595هـ/ 1198م[9].

وأيضا المدرسة العمادية بناها عماد الدين إسماعيل بن نور الدين وأوقف عليها أوقاف[10] ومدرسة الكلاسة قرب الجامع الأموي بناها نور الدين محمود سنة 555هـ/ 1160م وجددها صلاح الدين سنة 577هـ/ 1181م[11].

هذه أبرز المدارس التي نشطت في هذه الفترة حيث كثر الشيوخ والعلماء وتعددت التخصصات العلمية فتخرج منها الكثير من الطلاب ساهموا بدورهم في تنشيط الحياة العلمية.

وأما الأربطة والخوانق من أنشطها الخانقاه الأسدية التي أسسها أسد الدين شيركوه المتوفي سنة 564هـ/ 1168م[12] والمجاهدية نسبة لمجاهد الدين ابراهيم المتوفي سنة 656هـ/ 1258م والنجمية نسبة لنجم الدين أيوب والد صلاح الدين المتوفي سنة 568هـ/ 1172م[13] وخانقاه النجمية أوقفها الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي المتوفي سنة 568هـ/ 1172م والخانقاه الناصرية أنشأها الملك صلاح الدين الأيوبي[14].

أما بيوت العلماء التي نشطت في القرن 6هـ/ 12م منها بيت ابي الفضل يحي بن علي القرشي قاضي دمشق المتوفى سنة 534هـ/ 1139م نظم حلقات للحديث حضر عنده الكثير من الطلبة[15] وبيت شمس الدين البخاري أحمد بن عبد الواحد بن احمد بن عبد الرحمن اسماعيل بن منصور السعدي المقدسي ثم الدمشقي المتوفى سنة 623هـ/ 1226م كان ينظم حلقات الحديث أيضا[16] وبيت أسعد بن المنجا بن أبي البركات وجيه الدين أبو المعالي التنوخي الفقيه الحنبلي بدمشق (المتوفى سنة 606هـ/ 1209م) وبيت من أشهر بيوتات الحديث بدمشق سمعت عليه حفيدته ست الوزراء بنت عمر بن منجا الدمشقية توفيت سنة 717هـ/ 1317م[17].

وبيت بركات بن ابراهيم بن طاهر بن بركات بن ابراهيم الدمشقي الخشوعي الأنماطي المتوفى سنة 598هـ/ 1202م هو من بيتٍ كبير مشهور بالحديث وحدث عنه أولاده منهم أبو محمد عبد الواحد بن بركات المتوفى سنة 636هـ/ 1238م وأبو الحسن علي بن بركات المتوفى سنة 630 هـ/ 1233م وستهم بنت بركات توفيت سنة 640هـ/ 1242م[18].

وهناك مراكز أخرى للتعلم هي الترب و هي مقبرة أو موضع قبر يبنى إلى جانبه مدرسة أو مكتبة أيتام أو مسجد صغير وهذه الترب كانت تسمى الأعزية وهو مكان يقام به العزاء قريب من القبور يجتمع عنده الطلبة للتعلم خاصة النساء[19].

هذه المراكز العلمية اعتمدت على نظم تعليمية وبرامج لتنظيم وتسهيل ايصال العلم للطلاب وقد تعددت هذه النظم نوجزها في ما يأتي:

ثانيا: المناهج التعليمية:

كانت الدراسة بداية تبدأ بالكتاتيب التي تعتبر من أقدم مؤسسات التعليم عند المسلمين وأسبقها وجودا في العالم الإسلامي تقوم بتعليم الصغار الكتابة والقراءة واللغة والحساب وقصص الأنبياء وجميع العلماء تتلمذوا في هذه الكتاتيب ذكورا وإناثا هناك كتاتيب لتعليم القراءة والكتابة وأخرى لتعليم القرآن[20]، وبعد أن يتعلم الطفل القراءة والكتابة والحساب يحفظ القرآن وغالبا في سن العاشرة ثم يمنح إجازة الكُتَّاب وتنتهي دراسته به[21].

وكانت الدراسة في الكتاب عادة تمتد من يوم السبت إلى الخميس باستثناء يوم الجمعة والنصف الثاني من يوم الخميس. وكان الصبيان يبدءون يومهم المدرسي بحفظ القرآن عندما يكونون مكتملي النشاط، ويستمر ذلك إلى الضحى ثم ينقلون بعد ذلك إلى تعلم الكتاب حتى الظهر. ثم ينصرف التلاميذ إلى بيوتهم. وكان في بعض الكتاتيب فترة في المساء يدرس فيها الصبيان النحو والحساب وأيام العرب وتاريخهم. وكان يوم الخميس يخصص عادة للمراجعة و التلاميذ يذهبون إلى الكتاب في الصباح الباكر فيجدون معلمهم جالسا في المكان المخصص له فيجلسون من حوله على اليمين واليسار قعودا على الحصير المصنوعة من السمار أو نبات الحلفاء، وقد كان ذلك هو الأثاث المتواضع الشائع للكتاب[22].

وبعد أن تنتهي الدراسة في الكتَّاب التي تعادل الدراسة الابتدائية والمتوسطة في عصرنا الحاضر يتم الانتقال إلى مرحلة أخرى هي الدراسة في الجوامع أو المدارس أو الخوانق والأربطة وهي تعادل الدراسة الثانوية والعالية في عصرنا[23]. وغلب في الكتاتيب طريق التعليم عن طريق التلقين.

1ـ **التلقين**:

يعتبر التلقين من أقدم الطرق التعليمية لازال إلى يومنا وهو يعني التفهيم وهي الطريقة التي يكون فيها للمعلم الدور الأكبر في العملية التعليمية فهو الذي يقوم بإعداد الدرس وتحضيره ثم يقوم بعرضه وشرحه وتوضيحه حيث يشرح المعلم الدرس يوضحه ويبسطه حتى يستطيع الطالب استيعابه وفهمه ثم حفظه واعتمدت هذه الطريقة في معظم المراكز العلمية، لكن قد كثرت خاصة في الكتاتيب لأن معلم الكتاب لم يكن مخصوصا بتعليم المهن أو الدروس الطبيعية وإنما كانت وظيفة المعلم القيام بتعليم القرآن والنحو والعربية والشعر وأيام العرب فالمنهج بطبيعته يتجه إلى تعليم لفظي فتعليم القرآن يجب حفظه بألفاظه دون تبديل او تحريف[24].

ويقول في ذلك الرحالة ابن جبير: وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين يعلمون الخط في الأشعار وغيرها تنزيها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حده والمكتب على حده فينفصل من التلقين إلى التكتيب لهم في ذلك سيرة حسنة ولذلك ما يتأتى لهم حسن الخط لأن المعلم له لا يشتغل بغيره فهو يستفرغ جهده

في التعليم والصبي في التعلم كذلك ويسهل عليه لأنه بتصوير يحذو حذوه[25]. ومن خلال قوله يتبين أن التلقين طريقة اعتمدت بكثرة في الكتاتيب.

حيث كان التلميذ يضع في حجره لوحه المصنوع من الخشب المصقول أو الصقيع وعلى اللوح ما كتبه بالأمس فيشرع كل منهم في الحفظ وتتصاعد أصواتهم متشابكة مختلفة لاختلاف ما يقرأ كل منهم بعد الآخر لتفاوت مستوياتهم. ويقوم معلم الكتاب بالاستماع إلى كل واحد منهم بعد الآخر للتأكد من حفظهم لما كتبوه على الألواح يقوم بعدها الصبي بمسح اللوح بوضعه في إناء به ماء طاهر ثم يجففه. وفي بداية تعلم الصبي للكتابة كان المعلم يقوم بإملاء آية أو آيات من القرآن على كل واحد يطالبه بكتابتها ثم ينتقل إلى صبي ثان ثم ثالث وهكذا. ثم يعود إلى الصبي الأول ليراجع له كتابه. أما كبار التلاميذ فكانوا يقومون بنسخ كتابتهم على الألواح من المصحف مباشرة وكان المعلم يستعين بهؤلاء التلاميذ الكبار يساعدونه في تعليم المبتدئين[26].

ومن أمثلة ذلك مجالس التلقين مجلس الحافظ جمال الدين أبو موسى الجماعيلي المقدسي الصالحي توفي سنة 626هـ/ 1231م كان قارئا وعقد مجلس العلم انتفع منه الطلبة فاعتمد على تلقين وتعليم الحديث والقرآن والفقه[27].

وأبو موسى بن الحافظ الشيخ الامام العلامة الحافظ المفيد المذكر جمال الدين ابو موسى عبد الله بن عبد الغني المقدسي الصالحي الحنبلي كان متقنا للقرآن والحديث والفقه ونشط بتلقين الحديث والقرآن وانتفع الناس بمجالسه توفي سنة 629هـ/ 1231م[28].

أما التعليم في المساجد والمدارس والأربطة والخوانق ومنازل العلماء فقد اتخذ طرق عدة حسب نوع المادة المدروسة لكن عموما تم الاعتماد على طريقة التلقين والإلقاء والحفظ والتسميع والمناقشة والإملاء والقصة وقد تعتمد كلها في درس واحد[29].

2ـ الإملاء والشرح والمناقشة:

يعتبر الإملاء من أهم الطرق التعليمية التي تقيد العلم ويعتبر من أعلى درجات الرواية لأنه يظبط الحروف والكلمات في الكتب، والإملاء يسهل حفظ المادة العلمية والرجوع إليها وقت الحاجة وهو وسيلة لحفظ العلم من الضياع والفقدان[30] ويساعد على المذاكرة قال الإمام الزهري: «إِنَّمَا يذهِب العلم النسيان

وترك المذاكرة [31] ويستحب أن يكون المملِّي فِي حال الإملاء على أكمل هيئة وأفضل زينة ويتعاهد نفسه قبل ذلك بإصلاح أموره التي تُجَمِّلُه عند الحاضرين من الموافقين والمخالفين[32].

وغلب الإملاء خاصة في حلقات الحديث والقرآن حيث يقوم الشيخ بإملاء الحديث مثلا إما من محفوظاته أو من مذكرات كتبها ليقرأ منها ويملي فقرة فقرة أو حديثا حديثا مع اتصال السند ويكتب الطلبة ما يمليه وبعد الانتهاء يعقب بالشرح والتفسير وتوضيح ما هو غامض في الحديث، والطلاب يدونون هذه الشروح على هامش أوراقهم التي كتبوا فيها الخصوص وقد يعقد المعلم مجلسا خاصا بالإملاء وقد يملي مباشرة بعد الإلقاء الشفوي وقد يملي المعلم درسه من ذاكرته وحفظه وقد يملي من كتاب بين يديه[33].

وأما طريقة المناقشة تعني الحوار اي السؤال والجواب الذي يظهر التفاعل بين المعلم والطلاب[34] وتسمى الطريقة الاستجوابية أو طريقة المحادثة وهي وسيلة فعالة لتوجيه الطالب وارشاده بالتدرج وفق مستواه العقلي والتحصيلي إلى التوصل إلى حقائق الأشياء بنفسه وتوضيحها له في حالة عجزه وهي وسيلة ناجعة لجلب انتباه الطلاب وإثارتهم نحو الموضوع المراد تعليمه مما يشحذ هممهم ويحمسهم إلى اكتشاف الإجابات الصحيحة والمشاركة في شرح الدرس وتحديده وفهمه فمن خلالها يتفاعل الطلاب مع معلمهم[35].

وهي وسيلة مهمة من وسائل الشرح والإيضاح تساعد التلميذ في التعرف على الحقائق والمعارف، وتعمل طريقة المناقشة والحوار على تثبيت المعلومات في ذهن الطلاب ومراجعتها فبأسئلة المعلم يراجع الطلاب المادة التي سبق وأن درسها لهم وحملهم على تكرار ما هو مهم لهم من الدرس ومن خلالها يستطيع أن يقيم مدى استيعاب وفهم الطلاب للمادة العلمية[36].

وغلبت في هذه المراكز التي ذكرناها التدريس عن طريق تنظيم حلقة وهي اجتماع طلبة حول مُدرس وبالتالي برنامج دراسي ودروس متتابعة وكانت هناك حلقات متعددة مثل حلقة أهل الحديث وحلقة النحويين[37].

وأيضا حلقات لتفسير القرآن وأصول اللغة والشعر وعلم القراءات ثم الحصول على إجازات وكان الشيخ يجلس على كرسيه أو على مكان مرتفع وسط حلقة والطلاب يلتفون حوله فيلقي درسه شفاها أو من كتاب بين يديه وقد يكون

الكتاب من تأليفه هو،أو لغيره ويناقش الشيخ طلبته في مواضيع[38] ويقف عندما تكون مسألة غير واضحة فيشرحها أو قد يعرض الشيخ مسألة من المسائل في الفقه أو الحديث أو اللغة والأدب فيشرحها ويأتي عليها بشواهد من محفوظه، أو مما يعرفه أو يأتي به من الكتب، وأساليب الحلقة قد تكون بالإملاء حيث يجلس في موضع مرتفع من كرسي وغيره وأحيانا بالشرح والمناقشة[39].

وكان المتعلم ينظم إلى الحلقة التي يريدها ويختار الشيخ الذي يريده ويقضي في تلك الدراسة والتحصيل سنوات طويلة وإذا ما وجد في نفسه المقدرة الكافية والكفاءة العلمية اللازمة جلس مجلس المعلم ليناقشه العلماء فإذا ثبتت جدارته وتأكد تفوقه استحق لقب المعلم واستطاع أن يرأس أحد الحلقات العلمية[40].

والدراسة لم تنتهج منهجا مقررا أو محددا فالمدرس هو الذي يقرر ما يريد تدريسه لطلبته وهو الذي يختار المنهج الملائم والدرس يعقد يوميا من قبل الشيخ وتضم الحلقة الجميع بلا تفرقة ولم تكن حلقات العلم تقتصر على الدروس فقط بل كان فيها مناظرة العلماء الوافدين عليهم من أقطار العالم الإسلامي حيث كانت تُعقد حلقات مختلفة تتناول جميع العلوم النقلية والعقلية حيث ظلت البيوت المتخصصة بالعلم في دمشق تنشر العلم بين طلابه سواء في الحلقات العامة المساجد أو في بيوتها الخاصة[41].

وكان الحديث يلقى بعد المقدمة والبسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم يبدأ ببيان رواة الحديث وضبط أسمائهم وإن كان في الحديث بعض المصطلحات في علوم الحديث أوضحها و بينها ثم ينتقل إلى نص الحديث فيوضح غامض كلماته ثم ما دل عليه الحديث من أحكام شرعية وقد يتطرق إلى ذكر من احتج من الفقهاء بهذا الحديث من أصحاب المذاهب الأربعة ووجه الدلالة فيه ويختم الدرس بعبارة والله أعلم وعلمه أتم ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يدعوا لنفسه ولمن حضر المجلس والطلبة يؤمنون على دعائه[42].

ومن أمثلة مجالس الإملاء التي اشتهرت في هذه الفترة مجلس علي بن مسلم بن محمد بن علي جمال الإسلام أبو الحسن السلمي الدمشقي الفقيه المتوفي سنة 533هـ/ 1138م لزم الغزالي ودرس في حلقته بالجامع الأموي وسمع الكثير وأملى عدة مجالس وكان له مصنفات في الفقه. وأيضا حلقة أبي بكر بن زين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي الصالحي توفي سنة 618هـ/ 1221م[43].

وحلقات الحافظ ابن عساكر علي بن الحسن أبو قاسم الدمشقي 571هـ/ 1175م وهو من أسرة علمية عنيت بالحديث، حيث أتقن علم الحديث وسافر إلى بلدان عديدة لطلبه وقد اشتهر بالتسميع وانتهت إليه رئاسة الحفظ والإتقان والمعرفة التامة بالحديث متونا وأسانيد وأصبح إمام الحديث في عهده[44].

وأما الدروس التي جمعت بيت التلقين والإملاء والمناقشة نجد في اللغة والنحو والشعر الشيخ عبد القاهر أبو الفرج الشيباني المعروف بالوأواء الشاعر المتوفي سنة 551هـ/ 1156م، كان ينزل دمشق ويقرأ فيها النحو ويشرح شعر المتنبي[45].

وحلقات الشيخ علم الدين أبو الحسن السخاوي الهمذاني المصري ثم الدمشقي المتوفى سنة 643هـ/ 1245م يعتبر شيخ القرآء بدمشق، كان قد قرأ على الشاطبي وشرح قصيدته، وله تفاسير وتصانيف كثيرة، ومدائح فِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت له حلقة بجامع دمشق، وولي مشيخة القراءات[46].

3ـ **القصة**:

القاص هو من يأتي بالقصة وهي طريقة تعليمية تقوم على العرض الحسي المعبر الذي يتبعه المعلم مع الطلاب لتعليمهم حقائق ومعلومات عن شخصية أو موقف أو ظاهرة أو حادثة معينة بقالب لفظي أو تمثيلي أو تستخدم لتجسيد قيم أو مبادئ أو اتجاهات أو أخلاق مرغوبة ويستطيع المعلم من خلالها توصيل المعلومة إلى الطالب بطريقة مشوقة فالقصة نوع من الأدب له جمال ومتعة ويشغف به الصغير والكبير إذا أجيد تلقيه، والقصة تغرس لدى الطالب بعض القيم الدينية والخلقة والسياسية والاجتماعية والعلمية لدورها وقدرتها على الإقناع عن طريق المشاركة الوجدانية، والقصة أسلوب تعليمي غير مباشر تعتمد على الإيحاء فكل قصة تنتهي حتما بعبرة هي بمثابة موعظة تستنتج استنتاجا وقد استخدم القرآن الكريم كثير من القصص والتي تحمل الكثير من العبر قال تعالى "لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب" سورة يوسف الآية 111[47].

وكان التعليم في المساجد يقوم على تعليم أمور الدين وتذكير الناس بالآخرة. وكان التعليم في هذه الأمور يعتمد على الأسلوب القصصي ممتزجا بالعلوم والحكمة والموعظة[48]. وللقصة أثر بارز في تقريب المعلومات إلى الأذهان بطريقة مشوقة وغير مباشرة[49].

من أمثلة ذلك مجالس عماد الدين أبو المناقب المحلي المصري، ثم الدمشقي المتوفى سنة 629هـ/ 1232م، كان شيخا عالما فقيها شافعيا حسن المحاضرة وله أشعار حسنة وكانت له معرفة حسنة بالأخبار والتواريخ وأيام الناس وكان يعتمد في حلقاته على الأسلوب القصصي[50] وكان ابي القاسم عبد الصمد بن محمد الانصاري الدمشقي المتوفي سنة 613هـ/ 1216م اهتم بعلم الحديث كان يحدث بدلائل النبوة ولى القضاء وكان يقص حكايات من مناقبه وعدله في قضاياه[51].

ثالثا: طرق تلقي علم الحديث:

تعددت التخصصات العلمية في دمشق وغيرها من الأقطار الإسلامية لكن غلب على حلقات العلم علوم الحديث والذي كان يتلقى بالطرق الآتية:

1- السماع:

وهو السماع من لفظ الشيخ وهو ينقسم إلى إملاء وتحديث من غير إملاء وهو أن يقرأ الشيخ من حفظه أو من كتاب والحضور يسمعون لفظه سواء كان المجلس للإملاء أم لغيره وهذه المرتبة أرفع أنواع التحمل عند جماهير أهل العلم ورأى بعضهم أن السماع من الشيخ والكتابة عنه أرفع من السماع فقط لأن الشيخ مشتغل بالتحديث والراوي بالكتابة عنه فهما أبعد عن الغفلة وأقرب إلى التحقيق لأن العادة جارية على المقابلة مع الإملاء[52].

والسماع هو طريقة الرعيل الأول من الرواة و يدخل في السماع تحديث الشيخ من وراء ستار، وقد أجاز ذلك جمهور العلماء مستدلين بسماع الصحابة والتابعين الحديث من زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم وغيرهن من وراء حجاب وروايتهم ذلك عنه[53].

ومن أمثلة مجالس السماع أن زين الامناء أبو البركات ابن الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن زين الأمناء بن عساكر الدمشقي الشافعي المتوفى سنة 627هـ/ 1230م، سمع على عمه الحافظ ابن عساكر والصائن، وتفرد بالرواية وجاوز الثمانين واقعد في آخر عمره فكان يحمل في محفة إلى الجامع وإلى دار الحديث النورية لإسماع الحديث[54] وحيدرة بن أحمد بن الحسين بن تراب الأنصاري المتوفي سنة 506هـ/ 1112م سمع الحديث من كبار الشيوخ بالشام منهم عبد العزيز الكتاني وأبي القاسم السمياطي قال ابن عساكر سمعت منه جزء وكان مكثرا من السماع[55] وأبو يعلى حمزة بن علي بن هبة الله الحبوبي الدمشقي المتوفي

سنة 555هـ/ 1160م سمع أبا القاسم بن أبي العلاء وأبا الفتح نصر بن ابراهيم المقدسي وسهل ابن بشر الإسفرايني وقد حدث عنه ابن عساكر[56].

2- الإجازة:

الإجازة لغة أجاز له، سوغ له، واستجاز طلب الإجازة، أي أذن وفي الاصطلاح إذن تسويغ وعلى هذا نقول أجزت له رواية هذا الحديث كما نقول: أذنت له سوغت له والإجازة رخصة تتضمن المادة العلمية الصادرة من أجلها وهي شهادة يمنحها الشيخ أو الأستاذ لطالب العلم لتفتح المجال أمامه لينال حقه في التدريس ورواية ما درسه عليه وأتقنه على يده[57].

ومثال الإجازة أن يقول المحدث لبعض طلابه: أجزتكم رواية كتاب البيوع من صحيح البخاري وقد سمعت من فلان وأجزتكم رواية صحيح مسلم عني، وقد سمعته من فلان غير أن يقرأ شيئا منه أو أن يقرأ بعضه و يجيزهم الباقي، أو يقول أجزت لك الكتاب الفلاني أو ما اشتملت عليه فهرستي هذه ولم يُجز العلماء المتقدمون الإجازة هكذا من غير قيد ولا شرط بل اشترطوا أن يعرف المحدث ما يجيز به وأن يكون المستجيز من أهل العلم حتى لا يوضع العلم إلا عند أهله[58].

ومن أمثلة ذلك أن عبد الله بن أحمد بن الأشعث السمرقندي المتوفي سنة 516هـ/ 1122م سمع الحديث من شيوخ دمشق قال عنه ابن عساكر أجاز لي جميع مسموعاته[59] وتحصلت المحدثة كريمة بنت حبقبق توفيت سنة 646هـ/ 1246م على اجازة من جماعة من المحدثين منهم مسعود الثقفي الاصفهاني المتوفى سنة 563هـ/ 1167م[60].

3- المناولة والمكاتبة:

فأما المناولة وهي أن يعطي المحدث تلميذه حديثا أو أحاديث أو كتابا ليرويه عنه كأن يناول الشيخ تلميذه كتابا من مروياته ويقول هذا من حديثي أو هذا من سماعي من غير أن يقول له أروه عني وهذه الطريقة يسميها المحدثون المناولة المجردة عن الإجازة وقد تجتمع المناولة مع الإجازة وحينها تسمى المناولة المقرونة بالإجازة، وهي على أنواع الإجازة على الإطلاق ومنها أن يعطي الشيخ التلميذ كتابا أو نحوه ويقول له: هذا سمعته من فلان فخذه واروه عنه أو خذه وأنسخه ورده إلي بعد مقابلته واروه عني وهي أعلى الصور، أما أدناها أن يأتي الطالب بنسخة صحيحة عن أصل الشيخ ويعرضها عليه فيأخذها الشيخ منه ويتصفحها

ثم يقوله له: أرويها عني وهذا ما يسمى "عرض المناولة"[61] أما المكاتبة هو أن يكتب العالم بخطه أو يكلف غيره بأن يكتب عنه بعض حديثه لطالب حاضر عنده أو لشخص غائب و يرسل الكتاب إليه مع من يثق به وهي قسمان:

1- أن تقرن الكتابة بالإجازة ثم يذكر له إجازته بها وهذا يشبه المناولة المقرونة بالإجازة.

2- أن يكتب إليه من غير إجازة وقد منع الرواية بها بعض أهل العلم والصحيح جوازها حسب ما ذهب إليه الكثير من العلماء.

وقد لا تشترط الإجازة في الكتابة لأن أكبر الرواة أخذوا بالكتابة المجردة عن الإجازة، ثم إن كتابة الشيخ إلى شيخ آخر أو إلى طالب فيها إشعار بإذن الشيخ في الرواية عنه، وإن كانت الكتابة مع الإجازة أقوى من المكاتبة وحدها، وقد رجَّح بعضهم الكتابة مع الإجازة والمناولة والإجازة[62].

من أمثلة ذلك أن المحدثة كريمة بنت حبقبق توفيت سنة 641هـ/ 1243م كانت تروي الكثير من الحديث كتابة عن مسعود الثقفي المتوفى سنة 563هـ/ 1167م[63].

4- إعلام الشيخ:

والمراد عند المحدثين أن يعلم الشيخ تلميذه بأن هذا الحديث أو الكتاب من مروياته وقد سمعه من فلان أو أخذه عن فلان، من غير أن يقول اروه عني أو أذنت لك في روايته، فقد سوغ الرواية بمجرد ذلك أكثر أهل العلم واعتبروا هذا الإعلام متضمن إجازة الشيخ بالرواية ورأوا أن ثقة الشيخ و أمانته تمنعه من أن يدعي سماع ما لم يسمع، وإعلامه تلميذه بسماعه يدل على رضاه عن تحمل هذا السماع وأدائه و قال بعض العلماء لابد من إجازة الشيخ حتى تصح الرواية عنه، ولما كان هذا النوع يتضمن الإجازة بالرواية دلالة لا تصريحا ذهب بعض العلماء إلى عدم جواز الرواية إذا منع الشيخ التلميذ من الرواية عنه كأن يقول:

هذا كتاب سماعي من فلان لكن لا أجيزه لك، أو لا ترويه عني وهناك من أجاز ذلك، و قال العلماء لا يجوز الرواية عن الشيخ إذا بين له علة ذلك، وله أن يرويه مع بيان تلك العلة التي قالها الشيخ لتلميذه[64].

ومن أمثلة ذلك ان آمنة بنت محمد بن الحسن القريشية ابنة خالة ابن عساكر توفيت سنة 595هـ/ 1198م سمعت الحديث من جدها لأمها القاضي أبو الفضل

يحي بن علي القريشي حيث استنسخ لها والدها كتاب السنن لأبي داوود سمعت بعضه من عبد الكريم بن حمزة المتوفى في القرن 6هـ/ 12م[65].

5- القراءة على الشيخ:

ويسميها أكثر المحدثين "العرض" وبعضهم "عرض القراءة" لأن الطالب يعرض على العالم ما يقرأه كما يعرض القرآن على المقرئ وهو أن يقرأ واحد على الشيخ إما من حفظه أو من كتاب مقابل مصحح، والشيخ يصغي له معتمدا على حفظه أو على نسخة مقابلة مصححة كأن يقول قرأت على فلان أو قرئ على فلان وأنا أسمع فأقر به أو يقول حدثنا فلان قراءة عليه، أو أخبرنا قراءة عليه ولا تزال هذه الطريقة متبعة في كثير من حلقات العلم وهي الطريقة الغالبة في التعليم وهذه الطريقة تكون كذلك عند تعلم القرآن وحفظه[66].

من أمثلة ذلك قول ابن عساكر: قرأت على فاطمة بنت علي الكبري في دمشق أجزاء حديثية سنة 526هـ/ 1132م[67] وأيضا زمود بنت جاولي أخت الملك الدقاق صاحب دمشق توفيت سنة 545هـ/ 1150م سمعت الحديث من جماعة من المحدثين وقرأت القرآن وحفظته على علي بن محمد بن طاوس المتوفى سنة 620هـ/ 1223م وابن القرطبي المتوفي سنة 542ه/ 1147م[68].

6- الوصية:

وهي أن يوصي العالم قبل سفره أو قبل موته بكتاب من مروياته لشخص بروايته عنه وهذه صورة من صور التحمل نادرة جدا، وعلل بعض من جوز الرواية بالوصية بأن دفع الكتب على الموصي له نوعا من الإذن وشبها من العرض والمناولة وهو قريب من الإعلام وهذا النوع من التحمل أضعف من الصور السابقة ولا تجوز للموصي له روايته عن الموصي عند الجمهور وقيد من أجاز الرواية بالتزام الموصي له عبارة عند الأداء ولابد له من بيان ما يدل على ذلك حين يروي عن الموصي ولا يجوز أن يقول حدثني فلان بكذا لأنه لم يحدثه[69].

ومن أمثلة ذلك بركات بن ابراهيم بن طاهر بن بركات بن ابراهيم الدمشقي المتوفى سنة 598ه/ 1201م انفرد بالرواية عن ابي محمد القاسم بن علي الحريري اجازة كتبها اليه من البصرة سنة 513هـ/ 1119م هو أيضا كتب برسالة وصية يجيز فيها من دمشق للحافظ المنذري[70].

7- الوجادة:

مصدر وجد يجد اصطلح المحدثون إطلاقه على من أخذ العلم من صحيفة من غير سماع ولا إجازة ولا مناولة، كأن يجد الشخص كتابا بخطه من عاصره وعرف خطه سواء لقيه أم لم يلقه أو بخطه من لم يعاصره ولكنه استوثق من أن الكتاب صحيح النسبة إليه بشهادة أهل الخبرة أو بشهرة الكتاب إلى صاحبه أو مما يؤكد نسبة الكتاب إلى صاحبه فإذا ثبت عنده هذا فله أن يروي منه ما شاء على سبيل الحكاية لا على سبيل السماع وكان جمهور العلماء يفضلون الرواية مشافهة بالسماع والعرض وهناك من عاتب من يروي بالوجادة و هناك من كان يضعف ما يروي من الكتب وما روي من عهد التابعين وجادة لم يروه أحد إلا بعد أن ثبتت له صحة نسبة المكتوب إلى صاحبه، ولم يرو عن أحد يعتد به أنه قال في الوجادة حدثنا أو أخبرنا فلان وإنما يقال وجدت في كتاب فلان ومن أمثلة ذلك. أن القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر المتوفى سنة 600هـ/ 1203م قد أخذ العلم وجادة من قاضي القضاة أبي الفضل يحي بن علي القرشي وابنه قاضي القضاة ابي المعالي محمد بن يحي بن علي وابن اخ الحافظ ابن عساكر عبد الله بن محمد بن الحسن المتوفى سنة 591هـ/ 1195م حيث نشر علم الحديث الذي تعلمه ووجده عن والده محمد بن الحسن بن هبة الله بن عساكر [71].

نستنتج مما تقدم أن دمشق في القرن السادس للهجرة كانت من أهم المراكز العلمية وأقبل عليها الطلاب من مختلف الأقطار الإسلامية حيث حلقات العلم في بيوت العلماء والجوامع والأربطة والمدارس وقد غلب على مجالس العلم العلوم الشرعية كعلوم القرآن والحديث والفقه وكانت طرق التعليم السائدة تتمثل في التلقين والسماع الشرح الإملاء والمناقشة والعرض ثم الحصول على إجازة وهي شهادة تثبت وصول الطلاب إلى درجة التدريس مما أدى إلى ازدهار الحياة العلمية وبروز الكثير من الفقهاء والعلماء والمحدثين والحفاظ كان لهم دورا كبيرا في تطور العلم وانتشاره بالأقطار الإسلامية ويستنتج أن هذه مناهج لازال معمولا بها حاليا.

الهوامش:

1 الأربطة والخوانق: روحيا تحملان نفس المعنى فالرباط مكان مخصص للعبادة والعزلة للرجال والنساء ومأوى للمعتكفين ومقام للأرامل واللاتي لا مأوى لهن، والخانقاه كلمة فارسية تعني بيت الصوفية ومكان للعزلة والعبادة وتلحق بالخانقاه مدرسة وضريح وكان الرباط سابقا مكان للدفاع عن الثغور ثم أصبح مكان للتعبد. أنظر: قتيبة الشهابي، معجم دمشق التاريخي للأماكن والأحياء والمشيدات ومواقعها وتاريخها، وزارة الثقافة، دمشق، 1999م، ج1 ص245، 317

22 ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت ج12 ص280-285 وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الكتب العلمية، ج2 ص298. وطرفة عبد العزيز العبيكان، الحياة العلمية والاجتماعية بمكة في القرنين 7-8 هـ، مطبوعات مكتبة فهد الوطنية، الرياض، 1996م، ص64؛ وعبد الرحمن مريس المريس، المدينة المنورة في العصر المملوكي، 648هـ/ 963هـ، ط1، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 2001م، ص243.

3 سبط بن الجوزي: هو العلامة المؤرخ شمس الدين ابو المظفر يوسف بن فرغي التركي البغدادي الحنفي سبط الشيخ أبو الفرج بن الجوزي قدم دمشق ووعظ بها له كتاب مرآة الزمان وشرح الجامع الكبير توفي 654هـ/ 1256م/ ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج3 ص266.

4 ابن جبير، رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر، 1963م، ص220 وأبو شامة، تراجم رجال القرنين 6-7هـ المعروف بالذيل على الروضتين، ط2، بيروت، دار الجيل، 1948م، ص48.

5 عبد القادر النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م ج1 ص388

6 نفس المصدر، ج2، ص 8-50.

7 عبد القادر النعيمي، المصدر السابق، ج1 ص90 وعبد القادر بدران، منادمة الاطلال ومسامرة الخيال، ط1، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق ، ص129.

8 عبد القادر النعيمي، المصدر السابق، ج1 ص283 وعبد القادر بدران، المصدر السابق، ص128.

9 عبد القادر النعيمي، المصدر السابق، ج1 ص90 وعبد القادر بدران، المصدر السابق، ص129.

10 عبد القادر بدران، المصدر السابق، ص133.

11 عبد القادر بدران، المصدر السابق، ص144 وعبد القادر النعيمي، المصدر السابق، ج1 ص340.

12 عبد القادر النعيمي، الدارس، ج1 ص109-112.

13 نفس المصدر، ج2 ص136.

14 عبد الرحمن مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقبق عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان، ج2 ص41.

15 ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق علي شيري، بيروت، دار الفكر، 1995م، ج69 ص505.

16 ابو الطيب المكي، ذيل التقييد، تحقيق كمال يوسف الحوت، ط1، بيروت دار الكتب العلمية 1410هـ، ج2 ص374.

17 الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، ط2، دار الكتاب العربي، 1991م، ج13 ص129 وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مطبعة مجلس الإدارة المعارف العثمانية، حيدر أباد الهند، ج4 ص258.

18 الذهبي، المصدر السابق، ج 12 ص1135 ومحمد بن عزوز، بيوتات الحديث بدمشق، دار الفكر، دمشق، ط1، 2004م، ص97 وما يعدها.

19 الذهبي، معجم الشيوخ، دار الفكر، ج1، ص25 والعبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين منجد، ط2، الكويت، مطبعة الحكومة، 1948م، ج5 ص398.

20 سمية الوافي، التعليم في الشام في العصر الأموي، ماجستير في التربية الإسلامية والمقارنة إشراف صالح العمرو، جامعة أم القرى، 1428هـ، ص59-60.

21 محمد حسين محاسنة ، تاريخ مدينة دمشق خلال الحكم الفاطمي، ط1، دار الأوائل للنشر، دمشق، 2001م، ص257 وعبد الرحمن مريس المريس، المدينة المنورة في العصر المملوكي، ص241.

22 محمد منير مرسي 288.

23 طرفة عبد العزيز العبيكان، المرجع السابق، ص64 وعبد الرحمن مريس المريس، المرجع السابق، ص243.

24 سمية الوافي، المرجع السابق، ص100-101.

25 ابن جبير، المصدر السابق، ص245.

26 محمد منير مرسي، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، عالم الكتب، 2005م، ص288.

27 الذهبي، سير اعلام النبلاء، تحقيق شعيب الارناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، ط9، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1451هـ، ج22 ص319.

28 الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج23 ص26.

29 محمد مرسي، التربية الاسلامية، ص10.

30 سمية الوافي، التعليم في الشام، ص108-109.

31 جامع بيان العلم وفضله، ج1 ص443.

32 عبد الكريم السمعاني، أدب الإملاء والاستملاء، تحقيق ماكس فايسفايلرا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1981م، ص26.

33 سمية الوافي، المرجع السابق، ص107-108.

34 محمد منير مرسي، التربية الاسلامية، ص98.

35 سمية الوافي، المرجع السابق، ص123-124.

36 نفسه.

37 جورج المقدسي، نشأة الكليات معاهد العلم عند المسلمين والغرب، ترجمة محمود سيد محمود، ط1، 1994م، ص23.

38 أبو بكر الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة، ج1 ص26-28 ومحمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف، مصر، 1968م، ص80.

39 أبو عمرو ابن صلاح الشهر زوري، المقدمة، تحقيق نور الدين عتر، ص241-242.

40 ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص220. وطرفة عبد العزيز، المرجع السابق، ص98 وعبد الرحمن مريس المريس، المدينة المنورة في العصر المملوكي، ص245 وما بعدها.

41 حسن المشاطي المكي، الثبت الكبير في مشيخة وأسانيد وإجازات الشيخ حسن المشاطي، تحقيق محمد بن عبد الكريم بن عبيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة، 2005م، ص 74، 75 وعبد الرحمن مريس المريس، المدينة المنورة في العصر المملوكي، ص245 وما بعدها.

42 - حسن المشاطي، المصدر السابق، ص94 ومحمد منير مرسي، التربية الإسلامية، ص286.

43 ابو الطيب المكي، ذيل التقييد، ص368 وابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، تحقيق حافظ عبد العليم خان ط1 بيروت 1407هـج2 ص378.

44 ابن عساكر أبو القاسم، تاريخ دمشق، ج1 ص11.

45 محمد الطباخ الحلبي، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، دار القلم العربي، حلب، ج4 ص232.

46 ابن كثير، البداية والنهاية، ج13 ص170.

47 سمية الوافي، التعليم في الشام، ص115-116.

48 محمد منير مرسي، التربية الاسلامية، ص285.

49 نفس المرجع ، ص98.

50 ابن كثير، البداية والنهاية، ج13 ص133.

51 محمد بن عزوز بيوتات الحديث بدمشق، ص145.

52 ابن الصلاح، المقدمة، ص132.

53 محمد عجاج الخطيب، الوجيز في علوم الحديث ونصوصه، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1989م، ص205.

54 ابن كثير، البداية والنهاية، ج13 ص127.

55 حسين حيدس وعذال ابراهيم، أثر المحدثين والفقهاء ببلاد الشام في الحياة الفكرية في القرن السادس من خلال كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر مجلة التربية والتعليم، مج18، العدد2، 2011م، ص42 .

56 محمد بن عزوز، بيوتات الحديث بدمشق، ص76

57 ابن صلاح، المقدمة، ص152 ومحمد منير سعد الدين، المدرسة الإسلامية في العصور الإسلامية، ط1، دار النموذجية، بيروت، 1995م، ص181-182.

58 ابن صلاح، المصدر السابق، ص151 وجلال الدين السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النووي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1996م، ج2 ص17 ومحمد عجاج الخطيب، المرجع السابق، ص204.

59 حسين حيدس وعذال ابراهيم، أثر المحدثين والفقهاء ببلاد الشام في الحياة الفكرية في القرن السادس، ص42.

60 ابو الطيب المكي، ذيل التقييد، ج2 ص593.

61 محمد عجاج الخطيب، المرجع السابق، ص210 وخير الدين الزركلي، الأعلام، ج2 ص253.

62 ابن الصلاح، المصدر السابق، ص165-174.

63 الذهبي، تاريخ الاسلام، ج1 ص4801.

64 – ابن الصلاح، المصدر السابق، ص175 ومحمد عجاج الخطيب، المرجع السابق، ص222.

65 ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج96 ص45 والذهبي، تاريخ الاسلام، ج1 ص4351. وحسين حيدس وعذال ابراهيم أثر المحدثين، ص45.

66 – ابن الصلاح، المقدمة، ص136 -137.

67 ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج70 ص35.

68 نفس المصدر، ج69ص167 وابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج13ص78.

69 ابن الصلاح، المصدر السابق، ص177.

70 محمد بن عزوز، بيوتات الحديث بدمشق، ص95-97.

71. ابن الصلاح، المصدر السابق، ص178 ومحمد عجاج الخطيب، المرجع السابق، ص215. محمد بن عزوز، المرجع السابق، ص47، 52.